حسيبة بن بوعلي

للكاتبة إزدهار بوشاقور*



إحذر أن تُسلِّم زمَانك لغيرك فيْصبح كل من هَبَّ ودَبَّ أمَامك ، وإحْذر أن تَبيع وطنك فمَا مِن شاَري يَحفظ لك أرضك إلاَّ وداس على عرضك . والوطن إحساس ونِعمَة وحريَّة ، ومن الصعب جدًا أن تجد هذه الثلاثية عند من سلبك نومك . فلا تمشي عكس ما يُرضيك ولو كان كل الناس ضِدك لأنَّ حُبَّ الحرية هي الدافع لواجب التضحية ، والقلب المانح للإرادة و الترضية . والحرِّية مفتاح سعادة الإنسان ، وسببٌ في تحقيق الأحلام ، والحُرُّ أكثر عطاءً وأوفر حظًا ، فلا تكن سببًا في تكبيل حريَّتك.

والوطن هو الأرض التي أسير عليها كيفما أشاء ، وهو التحرر من القيود . مع تفتح جفون شمس يوم 18جانفي 1938على مدينة الشلف الأصنام سابقًا. غرب مدينة الجزائر ، وبقلب يشعر ببرودة طقس فصل الشتاء البارد هذا العام وببلدية سنجاس (بوقن فيل) سابقا bougain ville وعلى حافة جبال وارسنيس والتي تبعد ب14 كيلومتر جنوب مقر ولاية الشلف الهادئة غرب الجزائر بالضبط ولدت حسيبة إبنة عبد القادر بن الحَاجْ بن محمد الكبير بن بوعلي من أب من مدينة الشلف (الأصنام) سابِقا وهو من القِياد وأعيان الولاية يعمل بمديرية الزراعة .(مصلحة الري بالشلف) والدتها السيدة (أيت سعدى لويزة) إمرأة فاضلة سعت لمساعدة الفقراء وهي من مدينة الجزائر العاصمة ، من أصول قبائلية مثقفة ومتفتحة على المجتمع تحبُ الجزائر والدفاع عن القضية الجزائرية.

ومع بزوغ نور فجر ذاك اليوم وإنخفاض درجة برودة تلك الصبيحة الشتوية جاءت حسيبة إبنة عبد القادر بن بوعلي البنت البكر لوالديها إلى الدنيا وإستبشرت بها العائلة خيرًا وإحتضنتها عيون والديها بكل راحة وحملتها على كفوف الراحة والإهتمام والقناعة . رَبَت حسيبة مُربية سَوداء كانت تعمل بالبيت العائلي ، وتَعلقت بها الفتاة كثيرًا حتى كانت لا تخرج بمفردها في التجول إلاَّ وكانت معها.

نشأت "حسيبة بن بوعلي" في عائلة مُكتفية الحال ، وكان والدها من كبار رجال مدينة الشلف ومن أعيانها رجل متعلم ومُقدرًا للقضية الوطنية ، وأم مثقفة متفتحة تحب فعل الخير فسعت لمساعدة العائلات الفقيرة والتي حرمها الإستعمار من العيش الهادئ . عاشت طفولتها بالشارع الشلفي بوسط المدينة ، ولعبت في شوارعه وهي طفلة . كان لحسيبة مربية سوداء البشرة ، جلبتها العائلة للإهتمام بنظافة المنزل ومساعدة ربة العائلة في شؤون البيت وتربية الأولاد ، فكانت تحبُ حسيبة جدًا ولا تقبل لها قساوة الشارع خصوصا ما يتداول على ألسنة الفرنسيين من كلام وتجريح . زاولت حسيبة تعليمها الإبتدائي بمسقط بالشلف رأسها وكانت من المجتهدات ، والمحبات للدراسة ، حسيبة البنت الهادئة الساكنة القليلة الحديث، الصغيرة تحب الحياة ولا تدري لما حولها من إستعمار فالطفولة هي البراءة ونيران العدو لم تتلفت إليها فلا مصلحة للعدو في الطفولة ، كما أنَّ المكان الذي تعيش به لا يهم العدو بكثرة غير جني غلته ومحاصرة السكان المعزولين والتضييق عليهم . كما أنّ حالة عائلتها الغنية ساعدتها على ولوج مدرسة الفرنسيين فالعائلة تتكون من ثلاثة بنات حسيبة البنت البكر وسنها كان يقارب سن والدتها فكان هذا كثيرا ما يلفت نظرمن يشاهد حسيبة رفقة والدتها، و(فضيلة) وهي في الوقت الحالي معلمة متقاعدة و(سَتِّ) وهي الآن مالكة لصيدلية بالعاصمة ، وأخيهم الذكر "محمدعبدوا."

يَشهد المؤرخون وعلماء الإجتماع أن مكانة المرأة في مجتمع ما، هي معيار تقدم ومُسَاعد فَعَّال في العَملية الحَضارية . المَرأة نِصف المجتمع ولا تقل أهميتها عن مهام الرجل لأنَّه لا كثرة النساء أو قلتهنَّ في المجتمع ولا كثرة أو قلة الرجال له أهمية . إنّ حدّ الفصل في إنصاف المرأة هو إحترامها وتقديس أنوثتها ، وكذا إحترام تواجدها في المجتمع قال الرسول صلى الله عليه وسلم : " النساء شقائق الرجال ما أكرمهن إلا الكريم ، وما أهانهن إلا اللئيم". للمرأة قصة مع التاريخ ، هذه القصة التي تعود فصولها إلى قرون من الزمن ، ولقد أثبتت تواجدها في المجتمع ، وحسيبة بن بوعلي مثال المرأة المجاهدة . الفتاة تعيش الحياة بكامل هدوئها ، ووالدها صاحب أملاك وأراضي يبيع ويشتري من المعمِّر و لا من يهتم له ، كما أنه مُكتفي ولا يعاني فقرا ولا حرمانا لا يهتم لِمَا هنا ولا هناك أو بالأحرى في غنى عن ذلك ، هذه قدرته وإمكانيته والميزة التي جعلت الوالد يُكون بعيدا عن الشُبهة . لم يكن على حسيبة إحراج في كسب المعرفة والعلم ، ولا نقص في التواصل مع أبناء فرنسا التي كانت تُميز بين أبناء الجزائر وأبناءها ، وتحاول التسلط عليهم وإقصائهم لَولا شِدَّة وصَرامَة الجزائريين الذين كانوا قِلَّة من تتداول على المدارس الفرنسية نتيجة للظروف القاسية

والحِرمان المفروض. فمن الوهْم أن نعتقد أنَّ الإستعمار حَمل الحرية للناس ، والراحة لقلوب الأشخاص فمن البداية تكتشف أنَّك بالنسبة للمُستعمر لست إلاَّ مجرد تسلية ، وما إن ينال منك تنتهي لديه صلاحياتك . فحرمان وغبن في الشارع ، وحياة ضيِّقة مُنحصرة فيما يُمليه عليك المُستعمر ، ولكن رغم الإنتهاك كانت الجزائر تنهض ، والفدائي لا يتواني على ردِّ الإعتبار.

لم يجد الوالد بُدٌ من البقاء بالشلف فقرَّر ترك المكان والإنتقال إلى العاصمة حيث الحياة أفضل ومُواتية ، فبَاع ما بَاعه وترك ما تركه لأقاربه وأهله بالمكان ورَحل. إنتقلت عائلة حسيبة بن بوعلي إلى العاصمة سنة 1948. وعُمر الفتاة لم يتجاوز العشر سنوات وواصلت تعليمها هناك . وعشية إنتقال العائلة إلى العاصمة عمل الوالد بأمواله في التجارة تحت الحَكامة الفرنسية وإلتحقت حسيبة بالمدارس الفرنسية ولم يكن عليها حرج فهي من عائلة مكتفية ووالدها من الأعيان والأغنياء فلم يبخل عليها في هذه الحياة ، بل كان لها المال والجاه الكافيان واللذان أدخلاها أحسن المدارس التي كان يؤمُّها القليل من أبناء الوطن الأم نظرًا للظروف المعيشية والفاقة التي فرضها المستعمر على الأهالي عكس المعمِّر الذي كان ينعم بخيرات ونِعَم الجزائر . كما أنَّ شخصية حسيبة القوية ، والمُتمردة والشُجاعة مَيَّزتها عن غيرها من البنات ، وكان حُبها للوطن قد ضاعف مميزاتها وزاد من إحترام الغير لها حسيبة الفتاة الجميلة ذات القَد الأوروبي . بيضاء البشرة صاحبة عينان سودوتان حادة وحالمة ومُغْرمة، لها نظرات ثاقبة وجِديّة ومُمْعنة ، لها أنف واقف وشامخ ، وخُدود وردية فاتحة ووجه أبيض جميل شعرها أسود قصير يصل إلى معاتقها ، متوسطة القامة ، حسيبة تُشبه والدتها كثيرًا ، وكَبرت الفتاة حتى أصبح لا يُفرّق بينها وبين والدتها التي كان سنها يقارب سنَّ إبنتها البِكر، وكانت تكبر أختها فضيلة ب8سنوات . الفتاة تصلي ولا تترك الصلاة ، فإسلامها بقلبها ساكن وأفعالها تعكس ذلك . لحسيبة مُربية سوداء البشرة تكفلت بتربية الفتاة وحمايتها منذ صغرها وكانت كثيرا ما تُرى معها في الشارع تتبضَّعان أوتتجَوَّلان ، كما أنَّ حسيبة تحبها كثيرا.

أناقة حسيبة وحسن إختيار هندامها جلب إليها الأنظار والعيون العاشقة المتقربة منها ، لكن الفتاة كان يملأ قلبها حب الوطن ، وهدفها النيل من المستعمر ، ولا طريقة تَكفل ذلك إلا بالدفاع عنه بالذات . ركبت حسيبة ومربيتها السوداء الحافلة بالعاصمة بحي chemin neuf) وكان أغلب الراكبين فرنسيين فوقف أحدهم وترك المكان لحسيبة لكنها لم تجلس به وتركته لمربيتها السوداء فقال لها الفرنسي : لماذا تركت المكان لهذه الخادمة السوداء ؟ فردت حسيبة : هذه المرأة هي جدتي . وليست خادمة فإندهش هذا الفرنسي فلم تهتم حسيبة لفعله. عشية إنتقال حسيبة وعائلتها إلى العاصمة إنتقلت للدراسة بمؤسسة إبتدائية عين الزرقاء ببلكور والتي تسمى الاَن "سيكوتوري" وأتمت مرحلة التعليم المتوسط بالعاصمة ثم إنتقلت إلى ثانوية "بربروس" دي لا كروا" سابقا ودرست حتى السنة الثانية ثانوي أي حتى المرحلة الأولى قبل البكالوريا في قسم أدبي (عام واحد قبل شهادة البكالوريا) ، وهذا في ثانوية باستور . إنضمت إلى ثانوية باستورسابقا عمر راسم (حاليًا) ،

وكانت حسيبة تدرس مع الفرنسيات أمَّ الجزائريات فكنَّ يُعدنَّ على الأصابع وهنَّ من أهل المال والأعيان في أحد المرات سُرِقت قِطعة ذَهب لطالبة فرنسية فإتهمت الأستاذة حسيبة بالسرقة وبعد زمن وجدتها ، فرفضت حسيبة الدخول إلى القسم حتى تعتذر لها ، لأنَّها إتهمتها بالسرقة وهي لم تسرق ، وقالت لها حسيبة وأنتم تكذبون ولا أحد يحاسبكم.

واصلت الفتاة دراستها حتى الثانية ثانوي ، حينها تركت تعليمها النظامي ومقاعد الدراسة ، كانت حسيبة واحدة من بين عشر بنات جزائريات الذين يدرسون مع150فرنسية في de la croix وعرفت حسيبة بصمتها ، وقلة كلامها . وقلَّة إختلاطها بزميلاتها بشكل لافت للإهتمام . فتاة تحبُّ النظافة وتحب اللباس الجميل فكانت لا تختلف عن الفتيات الفرنسيات في لباسها ، لكن حب الوطن والقضية الوطنية أرقت نومها وإستحوذت على إهتمامها ، فكانت أفكارها وأقوالها تحمل تعاسة الشعب ، والرغبة الشديدة في الإنتقام . الوطن هو قداسة بالنسبة لحسيبة ولا من إستطاع تنحية هذا الحب من قلبها رغم جمالها وشبابها وإقبال الحياة عليها ، فكانت زهرة ربيعية جميلة جدًا . تخلت حسيبة عن دراستها لأنَّها كانت لا تميل إلى الشهادة كثيرًا ، وتشبُعها بقضية وطنها الجزائر جعلها تبحث عن كيفية لإتصالها بالمجاهدين ، وإنضمامها لصفوف جيش التحرير الوطني وعمرها لا يتعدى 16 سنة . كانت هذه بداية الخمسينات و الثورة التحريرية الكبرى لم تنطلق بعد ، لكن ثورة الشارع الجزائري متواصلة ، هؤلاء فدائيون وهذه حرب العصابات وهؤلاء شباب متحررون الكل معني بما تُعَانيه الجزائر السُخط والكراهية بكل مكان المستعمر لا بدَّ له من مغادرة الوطن . في هذا الحين كانت حسيبة نشطة كما أنَّ خرجاتها العديدة مع والدتها "السيدة لويزة" والتي كانت تتصل بالجمعيات الخيرية هو الذي أذكى فيها شعلة نور الوطن ، وبعث فيها الأمل.

كان لعائلة حسيبة أصدقاء للثورة ، وكانوا يزورون والدها ، كما كان لوالدتها إتصالات بهم فلم تجد عناءً في كيفية الوصول إلى من لهم عيون مع المجاهدين والمحبين للثورة ، ومنهم حتى الأوربيين المتعاطفين مع القضية الجزائرية ، والمائلين إلى تحرر شعوب إفريقيا وبلدان العالم الثالث ، وكان من بينهم طبيب العائلة "ماريوش"عندما تركت حسيبة الثانوية ساعدها الطبيب "ماريوش" للدخول للعمل في المستشفى كممرضة . كانت حسيبة الفتاة الخجولة المنضبطة الجميلة ، المعروفة بحبها الكبير لوطنها ، ومازادها شغفًا وميلاً لوطنها هو ما تسمعه يوميًا من تضحيات ومقاومة أسود ، أخبار تعِد بالفجر القريب . وكثيرًا ما كانت تتناقش حسيبة من حين إلى آخر في أمور سياسية كثيرة مع والدها "عبد القادر". كَبُرت الفتاة وكبُر معها حُبها لوطنها ، ورغم غناها إلاَّ أنها كانت تحسُّ بحاجة الأسر الجزائرية الفقيرة، وتشبعت بالتحرر ، وعاشت حلم الإستقلال في سِنٍ مُبكرٍ ، ووضعت عائلتها أمام الأمر الواقع عندما إلتحقت بالمجاهدين بالقصبة ففرضت عليهم الصمت ، لأنَّ الوطن أغلى شيء نملكه . هذه سنوات الخمسينات ، والثورة لم تبدأ بعد في هذه السنوات إنضمت حسيبة مبكرا إلى صفوف الكشافة أين ضاعف هذا التنظيم من حبها وإقبالها على وطنها وإنهالت من

دروسه الروحية والتنظيمية حتى رادف هذا الشعور حياتها . إمتازت حسيبة بن بوعلي بذكائها الحاد وقوّة بصيرتها لعواقب الأمور، كما عرفت بحذرها الشديد وسدادة رأيها . من خلال رحلاتها داخل الوطن ضمن صفوف الكشافة الجزائرية وإطَّلَعت على أوضاع الشعب السيئة . وفي عام 1953 سافرت حسيبة إلى فرنسا وإلى جامع باريس وكانت تدعو بالفرج لوطنها وتقرأ" ربنا لا تجعلنا أنانيين وهذا لأجل وطننا " كما كانت تحفظ القرآن ، وتقرأ سورة الكرسي والكثير من السور، تأثرت بفيلم "سيف الإسلام" وكثيرًا ما تتحدث عن إنجازات المسلمين كالحدائق والمساجد والجامعات في العديد من البلدان العربية المسلمة ، كما سافرت وزارت العديد من البلدان الأوربية مثل " إيطاليا" و"ألمانيا" وإسبانيا فتاة مُنْظَمَّة ومُتطوعة ، جريئة وشجاعة. إنضمت إلى الإتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين في سنِّ 16 وأصبحت مناضلة وفاعلة في صفوفه ، ودخلت المَوجة مع من دخلوا . وكان هذا أول تَعاقد لحسيبة مع الوطنية لديها ، وأول إنتماء رسمي لهيئة وطنية . في هذه السنوات المبكرة من حياتها ، عرفت حسيبة بشجاعتها وإقدامها كما أنَّ حب الوطن سكن قلبها ، فكانت لا تتوانى في واجبها معه ، ولأنَّها فتاة ربيعيَّة فرغم إنضمامها لصفوف الكشافة وهذه التوجهات وما عرف عليها من ميل للدفاع عن الوطن فإنَّ الإستعمار الفرنسي لم يهتم لها ولا بما تفعله.

رَأت حسيبة بعينها ما تعيشه العائلة الجزائرية من فقر وحرمان من ملذات الحياة ولو أبسطها من طرف الإستعمار، وذلك من خلال زياراتها مع والدتها التي كانت تنشط في جمعية خيرية مثل العديد من الجمعيات الخيرية التي كانت تأخذ على عاتقها مساعدة العائلات الفقيرة . في هذا السن المبكر كانت تحكي حسيبة لوالدتها عن مُعانات قلبها تُجاه ما تراه من قساوة المستعمر وبَذخ المُعمِّر، وتَمنت لو تَصعد الجبل أو تُساعد الثورة كيفما إستطاعت ، وأنَّها ستفعل ذلك حينما تَحين الفُرصة . وراحت حسيبة تُشارك في الجلسات وتتحدث عن مَشاغل الوطن والثوار، وإرتحلت إلى أوروبا مع أصدقاء الثورة الجزائرية من الداخل والخارج . زارت حسيبة فرنسا وتونس لأنَّها كانت تُحب السفر كما سبق منذ سن مبكر كما كان سفرها في إطار التنظيم الكشفي الذي تنتمي إليه ، عندما عادت من سفرها من فرنسا قالت لوالدها أنَّها زارت الجامع الكبير وصَلَّت فيه ركعتين .وهذا في سنة

1953بداية 1954. وعام بعدها أي في سنة 1954 في هذا العام إندلعت الثورة التحريرية الكبرى ، وإنطلقت شرارتها الأولى من جبال الأوراس فإنضمت حسيبة إلى إتحاد الطلبة الجزائريين المنحازين للثورة وتقربت من المجاهدين والواقفين على الثورة والمساهمين فيها . هي ثورة بحثت عن سعادة شعب إكتوى بنار الإستعمار، ولم يجد تحرره إلاَّ بداخله ، فالحزن الذي يسكن الأعماق ويقف الإستعمار حارسًا على أبوابه لن ينتهي إلاَّ بثورة شاملة مُوحدة تُعيد الإعتبار . فالظاهر لطَافة لا حدود لها وحُسن عيش ، والبَاطن غدرٌ وإستغلال لا ينتهي . الوطن في هذا الزمن أبكاه الكثير وفَدته أنفس كثيرة ، ورأت الدنيا عليه من الظلم ما ألسع الروح ضربًا بلا شفقة وبكل بأس ، إحْتجَّت

المعمورة وقامت الدنيا تبكي الوطن الجزائر لكن القلب حفظ سِرَّه لوحده و بَينه وبين خالقه ، فالألم مُرادف الحلم واليقظة ولا مَفرَّ من الحَاصل . سَافرت حسيبة وهي في صفوف الكشافة ، تُتقن حسيبة العديد من اللغات العالمية وأولاها الفرنسية واللاتنية والإسبانية . أمَّا في شوارع العاصمة ومع عائلتها فكانت تتحدث الشلفية وتنطق حرف القا بثلاثة نقط وتقول " أحوجي" " واه" وغيرها من اللهجة الشلفية . كانت حسيبة بن بوعلي فتاة شابة مَرحة تُحب اللغة الإسبانية وترقص إسباني جيدًا وكثيرًا ما تزور سنما " دنيا زاد" مع والدتها والتي كانت سيدة مجتمع كانت ترى حالة الطمأنينة والراحة التي ينعم بها الأوربيون، فخيرات الوطن تتوجه إليهم من تُمور ، وبرتقال ، وعنب ، وفي هذه السنوات كان التنقيب عن البترول في الصحراء الجزائرية الواسعة جار . وعندما بلغت حسيبة بن بوعلي سنَّ 17إنضمت إلى صفوف الثورة التحريرية للذود عن حقوق الشعب المغتصبة . هذه سنة 1955حيث عرفت الثورة لهيبها الأقوى والأعنف ، فتعرفت حسيبة على الكثير من الثوار وتحدثت إليهم . وكانت زميلة زهرة ظريف وسمية لخضاري وكثيرات أخريات ، عرفت حسيبة الفتاة بالخجل ، فتاة كتومة لا تتحدث كثيرًا مع الاَخرين ، وتجلس لوحدها في غالبية الوقت . وهي على مقاعد الدراسة بالثانوية نظَّمت المدرسة رحلة إلى إسبانيا وكانت إلى جانب زهرة ظريف ، وهما يسيران وقفت حسيبة إلى عرَّافة على حافة الرصيف لفتت نظر حسيبة فمدت حسيبة يدها لها لكن "العرافة " رفضت لمس يدها وقالت لها أنَّ يدك ملطخة بالدماء وهو ما أثار إستغراب من كانوا مع حسيبة فلم يدرِ الجميع إن كان قول "العرافة" هو حيلة لأنَّها تشتم رائحة الجزائرين أم هي الصدفة ؟ أو هي غيرة هذه العرافة من جمال الفتاة حسيبة الفائق؟. نشطت الفتاة في الصفوف خِفيَّة فكانت تسمع أخبار المجاهدين ، وإطَّلعت على أسرار الثوار.

دخلت حسيبة مُتطوعة إلى مستشفى مصطفى باشا بفضل طبيب العائلة الدكتور (مارشيوني) هو رجل ليبرالي كان يعرف هَدف حسيبة ، ويَدري مَيلها الكبير للقضية الوطنية ، فَحب الوطن هو الهواء الذي تعيش به وهي تحيا لبلوغ هدف كل مواطن في نَيل الوطن لسِيادته . عُرفت الفتاة حسيبة بهدوئها وقوة حَذرها وحِرصها ، فكانت كثيرًا ما تدقق في رأيها ، معروفة بإحترام أراء الغير ، بعيدة عن التسلط ، حسيبة تُحب وطنها فتاة شجاعة تمنت الإستقلال وفكِّ قيد الإستعمار عن وطنها بأيِّ وسيلة . عَملت في سنة 1956مع فتيات أخريات في شبكة الفدائيين ومنهم سمية لخضاري وزهرة ظريف ، وجميلة بوحيرد ، وأخريات كانت مساعدات للثورة من بعيد وبشكل مؤقت لا يلقى إهتمام المستعمر وبعيدا عن عيونه . في هذه الأيام إحتاجت الثورة لفدائيين يقومون بعمليات فدائية ، فشكَّلت حسيبة مع جميلة وسمية فوجًا من الفدائيين ولأنَّهم قريبي العهد بالإلتحاق بالثورة وغير مشكوك في إنتمائهم للثوار ، بعيدي عن الأنظار فكُلفوا بعمليات فدائية جريئة . وجُرأة وحُبَّ حسيبة لوطنها جعلها لا تُخمِّن في العواقب ولا ترى غير الشهادة سبيلاً للحرية الغالية .بإنضمام حسيبة إلى العمل في مستشفى مصطفى باشا كممرضة ومساعدة إجتماعية كانت كثيرًا ما تخرج مع والدتها التي تعمل في جمعية خيرية بالعاصمة وكثيرًا ما تُقدِّمُ المساعدة للعائلات المتضررات من الهمجية الإستعمارية ، كما قامت الجمعية بمساعدة الكثير من العائلات

بأعالي العاصمة والتي فقدت مُعِينها ، أو أحد أفرادها أو أطفال شُرِدُوا بَعدما أُبِيدَت أُسَرهم . كما جَلبت حسيبة الدواء لتمريض مرضى ومجروحين من االمجاهدين بالقصبة فكان كلما جُرح أحد الفدائيين أو المجاهدين وتمَّ جَلبه للقصبة إلاَّ وكانت حسيبة من بين المُعالجات له في حدود المستطاع . العائلة كانت على عِلم بما تقوم به حسيبة فبعد توقفها عن الدراسة بالثانوية إختارت سِلك الفدائيين ، عَلمت والدتها بما تقوم به الفتاة تحت غطاء أنَّها مُمرضة وأنَّها تعمل على تعلُّم مِهنة التمريض لتعمل بالمستشفى ، فكان يحضر إليها مساعدي الثورة ويطلبوا منها الأدوية للتطبيب ومساعدة الثورة والثوار . وكانت تجلب مواد كميائية لصناعة المتفجرات وهذا منذ إنضمامها للإتحاد الوطني للطلبة الجزائريين ، وكانت تعمل مع الشهيد طالب عبد الرحمان.

في الأسرة حسيبة فتاة جميلة هادئة تحب الموسيقى ، وكثيرًا ما تلعب على أوتار البيانو ، وكثيرًا ما تُخَبئ أشياء بداخله . إحترمت العائلة رأي حسيبة وسَاندت رأيها ، فكانت تسافر إلى الخارج وتعود وتحكي لعائلتها عن مغامرتها لصديقاتها وهذا في إطار التعريف بالثورة الجزائرية. حسيبة تعزف وترقص على غناء فضيلة الدزيرية وكذلك الألحان الإسبانية وكانت لا تترك صلواتها الخمس . فتحت الفتاة عيونها عن الثورة ورأت حُلمها في إستقلال بلادها ، وما رأت شفاءًا لقلبها غير نور الحرية ونعيم الأمان للأرض والعباد . وبعدما ساعدها طبيب العائلة الدكتور (مارشيوني) اللبيرالي الذي كان يعرف حسيبة ويدرك مُيولها وإهتمامها بالعمل والذي أدخلها متطوعة إلى المستشفى كمساعدة ، ثمَّ ممرضة تابعةٌ للمستشفى الذي كان يعمل به أطباء فرنسيون فقط . فقد تعرفت على الفدائي طالب عبد الرحمان والدكتور (تَمسيثْ دنيال) الشيوعي فكانت حسيبة تساعد في صنع القنابل في منزل مجاهد إسمه "عزوز بن صدوق" برفقة الشيوعي (دنيال تَمسيت) لكن تم التعرف على ما يفعلونه في فيلا عزوز ببئر خادم ، تقصت القوات الفرنسية أثرهم وهجمت عليهم بفيلا "عزوز" فألقت القبض على الشيوعي "تَمْسيت" وعزوز صاحب "الفيلا" وحسيبة فرت . وتمت محاكمة "دنيال" و"عزوز بن صدوق" وحُكم عليهم ب20سنة سجنا لكن حسيبة هربت ولم يتم القبض عليها وتَخبت ببيت "جميلة بوحيرد" بالقصبة . كما كُلفت حسيبة في الكثير من المَرات بصنع ووضع القنابل في هذه الفترة وفي السنوات الأولى من إندلاع الثورة هنا تعرفت حسيبة على محمود بوحميدي ، وعلي لابوانت وعلى الكثير منهم . كانت حسيبة فيما مضى كثيرًا ما تمر في أوقات فراغها على القصبة بقرب بيتها فتعرفت على الكثير من الناس ، وشعرت بميولهم للثورة وإنتمائهم للقضية الوطنية . حتى عكست أقوالها أفعالها ، الوطن المستعمر هو الأم التي فارقت ولدها وهي على ترابه تسير وخطواتها تصرخ .. يا ولدي لا تهتم فلا هَمَّ يدوم.

وواصلت حسيبة بن بوعلي مساندتها للثورة وللثوار بصبر وقوة شخصية ولكن نشاطها الفعَّال في الثورة ومساعدتها للثوار جَلب نحوها الأنظار وتفتحت عيون العساكر الفرنسيين عليها ، لكن لم يَثبت عليها أي شيء.

أكتوبر 1956. في هذا العام كانت حسيبة تعيش بالقصبة هاربة من جنود فرنسا التي طالبت بها حية أو ميتة فأصبحت مطالبة لديهم بالتسليم والإستسلام . قررَّت المُجاهدة حسيبة الإلتحاق نهائيًا بالمجاهدين بحي "القصبة العتيق" فكان لها دور فعَّال في إشعال فتيل معركة الجزائر، وغادرت بيتها العائلي الذي داهمته العساكر الفرنسية كلما سمحت بذلك الفرصة وتخفت في بيت "جميلة بوحيرد " . في أحد المَرات نزل فيلق من الجيش الفرنسي مُكونًا من 30جنديًا أو أكثر فدخلوا بيت المُجاهدة وسُئلت الأم وأختها فضيلة ووالدها وأخيها محمد عبدوا عن الفارة حسيبة لكن لا أحد يعرف مكان تواجدها فردت الأم : "لقد غادرت البيت ولم تترك لنا العنوان" ، فحسيبة فتاة كتومة لا تحكي كثيرًا عن أسرارها ، كان للبيت بيانو كثيرًا خبأت فيه الأم ما يوجد بالبيت من سلاح حمله إليها المجاهدين إلى أن تَحضر حسيبة أو أحد آخر يحمله إليهم . وضع أحد عساكر الفرنسيين يده على البيانو ، فجعلت الأم تلفت إنتباهه وتبعده عن البيانو ، بحث الجنود الفرنسيين في البيت وفي أركانه ، وبعدما يئس الجنود في إستنطاقنا خرجوا من منزلنا ، فتحت أمي البيانو فدهش الأولاد لأنَّ البيانو مليئًا بالسلاح وإنتبه الجميع للخطر . "تنكرت الأم بالزي الجزائري التقليدي ، وحملت حقيبتها وخرجت من البيت ، وبعد ساعات من غيابها وبعد عودتها لم أدري من جاء معها ولا مافعلت ، ذهبتُ إلى البيانو وفتَحته فكان فارغًا ، ولكنَّني قرأت في تصرفات أمي أنَّها كانت تدري ما تفعل حسيبة وأنَّها كانت تُساعدها " قالت فضيلة أخت حسيبة.

بعد إلتحاق حسيبة بالمجاهدين بالقصبة نهائيًا في أكتوبر سنة 1956خرجت إلى الشارع الجزائري مُتخفية بعدما أصبحت مكشوفة للناس ، طلبت منها الجبهة أن تُغير مَلامحها ولون وجهها فغيَّرت لون شعرها وحواجبها قدر المستطاع وإنضمت إلى بيت جميلة بوحيرد بالقصبة لتعيش مع الناس . وكان يطلب منها أن لا تتصل كثيرًا بالناس ، ولا تتكلم مع من هبَّ ودبَّ ، بل تتحدث مع الموثوق فيهم ، وتجلس في الأماكن التي يأمُّها الجزائريين والبعيدة عن أنظار المستعمرين . كانت تنقلات حسيبة خارج القصبة محسوبة ومضبوطة فهي مَحلَّ بحث من طرف القوات الفرنسية ، والحذر مطلوب منها . القصبة المنطقة المهمة وبها من المتاهات ما تخدم المجاهدين ، وكانت كثيرًا ما تخضع للتفتيش من طرف الجنود الفرنسيين . في أحد أيام عام 1956حضر الجنود الفرنسيين للبحث عنها فوجدوا والديها بالبيت فقال لهم الوالد أنَّها في عرس بالأبيار، وفور إنطلاق الجنود للمكان حتى تمَّ ترحيل حسيبة في الخفاء . في القصبة وعندما كان يقتحم البوليس الفرنسي القصبة كان المجاهدون يختبؤون في المخابئ السرية فكانوا يسيرون من سطح إلى سطح على عمارات المباني ولِكَي يَحميهم الشعب كان النِسوة تزغرد بكل ما لها حتى يُمنع جنود البوليس الفرنسي من الإنتباه وكشف مَسار الفارين من الثوار والمجاهدين ، حتى أنَّ العساكر الفرنسيين كانوا يضعون أصابعم في آذانهم من شدة الأصوات . فمن الخطأ أن ينتبه العساكر لفرار المجاهدين ، والقصبة مكان يحميهم من المستعمر.

في إحدى الأمسيات إجتمعت حسيبة بن بوعلي وجميلة بوحيرد وزهرة ظريف وسمية لخضاري يتحدثون عن الثورة وعن ما يفكرن فيه للأيام القادمة ، وكان أربعتهم مُكلفن بتشكيل وفد للسفر إلى إسبانيا لتعريف بالثورة الجزائرية هناك . ومنحون جوازات سفر وحُدد لهم موعد الإنطلاق ، في الأخير أخذ أربعتهم صورة واضحة لهن ، وإختارت حسيبة أن تأخذ صورة بالزي التقليدي وبالسلاح (كلاشينكوف) فإستغربن منها حتى ضحكنا على فعلها (الصورة موجودة حتى اليوم) تسارعت الأيام ومرَّ الزمن ، والمستعمر فاتحًا لأبصاره على الجزائريين داخل وخارج الوطن . كان مخبأ القصبة يَأمُّه المجاهدين ، وكانت حسيبة فدائية إلى جانبها محمود بوحميدي ، والطفل عمر ياسف ، وعلي لابوانت في المخبأ المتواجد بالقصبة ب 05 نهج ديزابديرام بأعالي القصبة بعيدًا عن الأعين . كانت حسيبة تُحبُّ كثيرًا الطفل "عمر" كأنَّه شقيقها وقالت لأمّها يومًا : يُذكرني "عمار" في أبي وكان يساعدنا للتنقل بين الشوارع ، وينظر من كلِّ الجهات لنجد الطريق الفارغ فنسلكه . وكان معها علي لابوانت ، أو "علي عمار" الذي عاش طفولة صعبة ، وإشتغل في سن مبكر في مزارع المعمرين ، وعرف حينها السيطرة والإستغلال الفرنسي . وعند عودته إلى العاصمة إنخرط في صفوف النادي الرياضي ومارس رياضة الملاكمة ، وهناك تعرف على الكثير من المواطنين المساندين والحاضنين للثورة ودخل السجن وبعد خروجه إنضمَّ إلى صفوف الثورة ضمن الفدائيين . وبعد كشف أمره لجأ إلى مخبأ القصبة مع المجاهدين ، مع حسيبة بن بوعلي والتي كانت تنصرف إلى مخبر يتواجد بالأبيار لصنع المتفجرات رفقة المجاهد طالب عبد الرحمان ، وتعود إلى مخبئها . وكلفت بوضع القنابل وعمليات فدائية منها من نجحت ومنها من لم تنجح ، وفي هذه الفترة تعرفت إلى كثير من المجاهدين وتمنت لو تنتقل إلى الجبل على أن تبقى محجوزة في مخبئها ، وتعرفت على "علي لابوانت " الذي حكى حكايته لحسيبة فلقد عاش طفولة صعبة حيث إشتغل في سن مبكر في مزارع المعمرين وتعرَّف على مُواطنين وثوار ولقد تمَّ القبض عليه وفي الفترة التي قضاها في السجن عرف قيمة الحرية وفهم معنى التضحية ، وفي أحد المرات طارده العساكر الفرنسيين وهو في أعالي القصبة وفجأة وجده محمود بوحميدي يجري في الدرج فأخذ بيده وخبأه بمخبئه هو وحسيبة . فإنضم إلى مجموعة الفدائيين بالعاصمة ، الذين هزوا الكيان الإستعماري . وشارك في القيام بعدَّة هجمات على مراكز جيش والشرطة الإستعمارية . ولقد شكَّل مع حسيبة وطالب عبد الرحمان مجموعة من الفدائيين شوكة في حلق المستعمر . أما الفدائي محمود بوحميدي المولود في سنة 1939 بالقصبة فكان خبير بشوارع الجزائر وأزقة القصبة ، وعُرِف بِحُبه للوطن ومَيله للشهادة . فلقد كُلف بِربط الإتصالات بين الفدائيين ، ومُساعدت المجاهدين وعمل على توفير مخابئ لهم بالقصبة مِثلما فعل مع علي لابوانت 1957وكان له دور فعَّال في إخفاء وثائق الثورة ومُراسلات مسؤولي العمليات . أما عُمَر يَاسف المولود يوم 07جانفي 1944 فبِمجرد مَا وعى مَا حوله ، ووعى معنى الإستعمار فراح يُخمِّن عن ما في إستطاعته فِعله لِهذا الوطن العزيز . الطِفل الشجاع الذي أصبح يَحمل السلاح في مِحفظته الصغيرة مُراوغًا الوحدات العسكريَّة التي لم تتفطن لدور هذا الطفل الذي كان يجتمع لكبار القادة أمثال "العرباجي" و"بن مهيدي". ولم يقتصر مجال نشاطه على

العاصمة فقط بل إنتقل أيضًا إلى الناحية كمراسل للجبهة وحاملاً للأسلحة ، ثم أصبح فيما بعد مُقاتلاً ، فكم من جندي أسقطه برصاصه فأرْدَاه قتيلا . حَمل رسائل إلى أشخاص رآهم من قبل يترددون على دَار خاله ، وأصبح مُسبلاً يُراقب الطريق للفدائيين ، ويَترصد العساكر ، وكم وحدة عسكرية رَاوغها وأبعدهم على السَبيل الصَحيح وهم يَجُوبون القصبة كادت الثورة تَخفق لولا شجاعة الطفل الغير مُشتبه فيه . إجتمع الطفل إلى كبار القادة برفقة خاله يوسف سعدي ، وتعرف إلى حسيبة بن بوعلي ، في ذاك اليوم تركه خاله مع المجاهدين وضَمنه معهم لأنَّ العساكر كانت تبحث عنه . إنكشف الطفل في الفترة الممتدة بين 56 و57 وعرف المُعمِّر أمر هذا الطفل عَقِب قتله لأحَد الخونة ، حيث عَثرت السُلطات الإستعمارية على صُورته وباشرت البحث عنه ، فأبعد بأمر من الجبهة إلى بلاد القبائل ولم يستطع الطفل البقاء ولا التأقلم فعاد إلى العاصمة وإلتقى بخاله ياسف سعدي وعلي لابوانت وبوحميدي محمود ، وهنا إنضمَّ إلى المجاهدين بالقصبة ليكون في أمان عن العيون . نشطت حسيبة في الخفاء وفي شوارع القصبة ، فكانت تعالج المرضى وتقوم بتطبيب الجرحى ، ولكن الخوف من كشف أمرها طلبت منها الجبهة التقليل من الخروج لأنَّ عُيون العساكر الفرنسية تتبعها . في هذه الأيام قام العديد من الفدائيين الجزائريين بعمليات فدائية على الدرَّجات الناريَّة ، وبصفة إرتجالية ، وكانت تحت غطاء التنظيمات التحررية الجزائرية وأبرزها جبهة التحرير الوطني ، وهي الجبهة التي إلتفَّ حولها الشعب بعد مَصَالي الحاج الذي كسب قلوب الجزائريين . إجتمعت حسيبة إلى زهرة ظريف وأخواتها المجاهدات ، وفي شهر ديسمبر من عام 1956 كُلفت بوضع قنبلة في مقهى يَؤمه الفرنسيين ، وفي هذه الفترة كانت حسيبة بن بوعلي في موضع بحث من طرف القوات الإستعمارية التي وزَّعت صُورها على الصحف ، وعَلَّقتها على جُدران الشوارع الرئيسية ، فغيَّرت حسيبة مَلامحها وطَلت شعرها وحواجبها بالحنَّاء والصَبغة حتى أمسَّت كما لو أنّها من أصُول أوروبية ، كما تدربت على تهدئة أعصابها وأوصِيت بالتركيز على الهدف كما أوصيت بالمحافظة على نفسها حتى ولو كلفها ذلك ترك القنبلة . فتنكرت حسيبة وإستعدت في الزمن المُحدد على وضع القنبلة ، ووضَعتها فيالوقت المُحدد وإنصَرفت . هذه العملية الفدائية كُلِلت بالنجاح وعَادت حسيبة إلى القصبة كما لو لم يَحدث شيء وبعد أيام إلتقت حسيبة بزهرة ظريف في أحد الأماسيات وقالت لها أنَّها شهدت في مَنامها أنَّها زارت بن مهيدي في بيته وطلب منها البقاء معه وقال لها بالحرف الواحد " مكانكِ معي ". لم تزر حسيبة عائلتها منذ أن كشفت القوات الإستعمارية دورها في الثورة وقيامها بصنع القنابل ، وكذلك جَلب الأدوية من مستشفى باشا ، وقيامها بعملية التمريض ، هنا في هذه الفترة فتحت القوات الإستعمارية عُيونها على القصبة فلا من يخرج ولا من يدخل إليها إلاَّ من يَسْكنها أو بتصريح . إشتاقت حسيبة لعائلتها ، وضاق خاطرها وهي بمخبئها بالقصبة ، ورغم تحذير الجبهة لها من المُغامرة أو المُخاطرة بحياتها إلاَّ أنَّها جلست تكتب في رسالة مُطولة لعائلتها التي لا تبعد عنها إلاَّ بشوارع قليلة ، رسالة ضَمَّنتها ما يَحْمله قلبها لعائلتها وأهلها ووطنها ، وهكذا أرسلت حسيبة الرسالة المُطولة إلى أهلها في 18من شهر سبتمبر1957 أي 20يومًا فقط قبل سقوطها في يدي العدو وفي ميدان الشرف حيث أرسلتها من مخبئها السري بالقصبة بأعالي العاصمة لكن السلطات الفرنسية قطعت مَسَارها ، رسالة مؤلفة من 4 صفحات كتبت باللغة الفرنسية ، سَألت فيها عن أحوال الأسرة ، وأبلغتهم عن

مَشروعها في الإلتحاق بصفوف جيش التحرير بالجبال ، والعمل كممرضة هناك وترجت والديها بعدم البكاء عليها في حال إستشهادها لأنَّها ستكون في قمَّة السَعادة إذا إستشهدت في ميدان الشرف . نَصّ الرسالة التي بعثت بها حسيبة إلى والديها:

Lettre de hassiba à ses parents

Alger 15septembre

Mes très chers parnts

Je viens d àvoir vaguement de vos nouvelles par la mére du

Frére .si abderezak. Il parait que vous allez bien .

Je l éspére de tout mon cœur .voilà prés de 9mois que nous a avons pu communiquer je me faisais un mauvais sang de tous

Les daibles .car je savais que vons étiez très ennyés à couse de

Moi de la palice ne sortait plus de la maison et il m était

Impossible de vous écrire ou de vous envoyer qui que ce soit

Jaimerai tellement vous revoir je vous ai terriblement languis il

Ne se passe pas un jour ou je ne pense à vous

Presque chaque nuit je reve devous .nous avons eu des

Moments très difficiles et méme maintenant ça ne marche pas

Comme sur des roulettes .mais enfin cela ne fait rien nous

Sommes pleins de bonne volonté et des fréres meurent tous les

Pour conduire leure pays à la liberté j ai entndu que vous aviez

Déménagé cela m étnne .mais enfin cést possible je serai bien

Curieuse de savoir ou vous habitez maintenant et comment est

Votre nouvelle maison .une chose pourtant m énnuie .je ne

Peux plus vous imaginer vivre comment je le faisais avont je

Me dis toujours (tiens ence momment ils sont à table) et je

Vous revois chacun à sa place.

Lala et zahia avec vous bien sur car elles n ont pas ou aller

Etant dit que mes deux oncles sont en dehos de l àlgerie . au

Fait .avez vous de leurs nouvelles !

Vous écrivent -ile ! c ést terrible comme la famille .

Nous manque quand on est loin d élle .vous savez que je suis

Très recherchée ici à alger donc il m ést imposseble de rien

Faire .aussi ai-je décidé .

Enfin il est de mon devoir de partir de partir au maquis ou je

Sais que je pourrais sevir comme infermiér ou méme s il le

Fait et je l éspére de tont mon cœur combattre les armes à

La main .enfin la route sere bien sur assez difficile pour arriver

Jusqu à un maquis .

Mais j éspére qu àvec l àide de dieu .jarriverai saine et sauve

Ne vous en faites suatont par pour moi .

Il faut penser aux petits qui vont bien tot reprendre l école

Et qui j éspére travailleront bien . vous ne pouvez vous

Imaginer combien ils me manquent .en effet voici un an que

Je ne les ai vusils ont du grandir surtout mon petit mohamed

Est il aussi méchant !

Parte -t-il quelque fois de moi .ou bien m ont - ils oblier et la

Concierge toujours aussi bavarde ! settez je crois que ne la

Reconnaitrai peut -étre pas c ést une vraie jeune fille.j àimerai

Avoir leurs photos et la votre aussi .ainsi il me semblera porter

Avec moi en mon cœur toute ma famille . jaimrai beaucoup

Vous voir avant de partir je ne sais pas si je pourrai mais sachez

Que je ferai mon possible car une fois au maquis vous n àurez

Que très peu ou rarment de mes nouvelles .biintot inch allah

Nous serons tous réumis mais peut -étre ou si la mort nous

Arrache à la vie nous nous rencontreons chez notre dieu .si je

Meurs vous ne devez pas me pleurer .je serai monte heureure

Je vous le certifie .enfin il n én est pas questions .mais on ne

Sait jamais c ést sivite arrivé surtout dans la vie que méne .

Enfin bref tachez de m indiquer une adresse sure je pourrais

Vous écrire il le faut absolument quant à vous répondez -moi

Par la personne qui vous apportera cette lettre enfin chers

Parents j éspére que avez reçu les lettre que j ai écretes à

Tata .sakina . je ferai tout mon possible pour vous voir avant

De partir mais je ne sais pas s il faut becaucoup y compter

Enfin tata surtout qui doivent beaucoup penser à leure petite

Fille et vous mes parents adorés . il n ést pas de mots pour

Vous exprimer mon affection mille baisers .

Votre fille qui vous aime hassiba .

(هذه الرسالة كانت في الأرشيف الفرنسي ، وبعد الإستقلال ، وبعد مُطالبة الباحثين الجزائريين بها صارت في أيدي البَاحثين الجزائريين ، ونُشرت على الأنترنات) وهاهي الرسالة التي أرسلتها حسيبة إلى

عائلتها باللغة العربية : الجزائر في 15سبتمبر 1957 أي 23 يوم قبل إغتيال حسيبة معية الشهداء علي لا بوانت ومحمد بوحميدي وعمر الصغير .والديَّ العزيزين : تلقيت بعض أخباركم بصورة مقتضبة من والدة الأخ (سي عبد الرزاق) يبدوا أنكم بِحال حسن ذلك ما أرجوه من كل قلبي ، لقد مَضى نحو تسعة أشهر لم نتواصل خلالها وقد سبَّب لي ذلك قلقًا رَهيبا ، ذلك أنني كُنت أعلم أنَّكم منزعجون بسَببي وأنَّ الشرطة لا تكاد تُغادر البيت ، وكان مُستحيل عليَّا الكتابة لكم أو إرسال أي شيء إليكم . كم أرغب في لقائكم من جَديد لقد أضنيتكم بصورة رهيبة ، لا يَكاد يَمضي يوم إلاَّ وأنا أفكِّر فيكم ، أحلم بِكم كل ليلة تقريبًا ، لقد مَرَّت بِنا أوقات عصيبة جدًا ، وحتى الاَن لا تجري الأمور بصورة حسنة ، ولكن ذلك لا يؤثر في شيء فنحن كلنا عزيمة وثمَّة إخوة يَستشهدون كل يوم ليقُودوا الوطن إلى الحرية . سَمعت بأنَّكم غيَّرتم المسْكن وقد إستغربتُ ذلك .ولكن في النهاية ذلك مُمكن جدًا وأنَّ الفضول ليدفعني لمَعرفة مكان إقامتكم الحالي وكيف هو بيتكم الجديد ، ثمَّة مع ذلك شيء يزعجني . لم يعد بوسعي تصوُّر عيشكم كما كنت أفعل سابقًا فأنا على الدوام أحدِّث نفسي قائلة (لا بد أنَّهم الاَن حول مائدة الطعام) ثم أرى كل واحدٍ في مكانه . لالة وطاطا زهية معكم طبعًا . إذ هما لا تملكان مكانًا اَخر لتذهبَا إليه . بما أنّ عمي كليهما يعيشان خارج الجزائر بالمناسبة هل تملكون أيّة أخبار عنهما ؟ أهما يكتبان لكم ؟ ما أصعب الشوق إلى الأهل حين نكون بعيدين عنهم . تعلمون أنّني مطلوبة كثيرًا من الشرطة هنا في مدينة الجزائر فيستحيل عليّ إذن فعل أي شيء . ولذلك فقد قرّرت - بل واجبي- الذهاب إلى جبهة القتال حيث أعلم أنني أفيد كممرضة أو حتى وهو ما أرجوه من كل قلبي أن أقاتل والسلاح في يدي . صحيح أن الطريق سيكون وَعرًا للوصول إلى جبهة القتال ولكنني اَمل بعون الله بُلوغ ذلك سَالمة مُعافاة لا تقلقوا على الأخص بشأني ينبغي التفكير في الصغار الذين عليهم العودة قريبًا إلى المدرسة ، وأرجو أن يكونوا مُجتهدين لا تتصوروا كم أفتقدهم فأنا لم أراهم منذ سنة لا بد أنّهم كبروا، وخاصة صَغيري محمد أما يزال مشاغبًا كعادته ؟ أهو يتحدث عني أحيانًا ؟ أم تُراهم نَسوني ؟ وحارسة المبنى أما تزال ثرثارة ؟ أمَّا "سِتي" فقد لا أتعرَّف عليها الاَن . فقد أصبحت شابة حقًا أرغب في الحصول على صورهم أيضًا ، سأشعر بذلك بأنني أحمل معي في قلبي أسرتي كلّها ، أود رؤيتكم قبل الرحيل لا أدري إن كنت أستطيع ولكن إعلموا أنّني سأبذل وسعي ، إذ حين أكون في الجبهة فلن تبلغكم أخباري إلا نادرًا . ولكن ربما كان (الفرج قريبًا) بالعربية ونكون إن شاء الله (كذا) جميعنا مجتمعين فإن أخذنا الموت إلتقينا عند ربنا إن مِت فلا تبكوني ، فسأموت سعيدة أؤكد لكم ذلك المهم ألاّ مجال لذلك ، ولكن من يدري فذلك يَحدث بسرعة وخاصة في مثل الحياة التي أحيَ حسنًا أحرصوا على مَنحي عنوانًا موثوقًا يُمكنني الكتابة فيه إليكم فذلك ضروري جدًا ، أمّا أنتم فأجيبوني مع الشخص الذي يحمل إليكم هذه الرسالة . وأخيرًا والديَّ العزيزين أرجو أن تكونوا قد إستلمتم الرسائل التي أرسلتها إلى طاطا سكينة سأبذل كل وُسعي لأراكم قبل أن أرحل ولكنني لا أدري إن كان ينبغي التعويل كثيرًا على ذلك خِتامًا إحرصوا على أن تُرسلوا لي الصورة التي طلبتها . أقبِّلكم جميعًا بكل حرارة . وخاصة لالة وطاطا اللتين تفكران بالتأكيد في حفيدتهما أمَّا أنتما والديَّ الحبيبين فليس ثمَّة كلمات تعُبّر عن حُبي لكما . ألف قبلة إبنتكم التي تُحبكم.

حسيبة بن بوعلي.

الرسالة كانت مَحفوظة بالقسم التاريخي للجيش البَري في (فانسان) العُلبة رقم1 H124التي تَحْمل عبارة (الشبكة الخاصة بالقنابل) وتتضمَّن عِدة مِلفات بينها الإضبارة H1245/D31التي توجد فيها رسالة الشهيدة حسيبة . لم تَصل هذه الرسَالة إلى يد والديها ، وهي النسخة المصورة عن النسخة التي عثر عليها في الإضبارة H1245/D31وقد تمَّ إستظهار هذه الرسالة بعد 57سنة من إستشهاد حسيبة.

رسالة حسيبة إلى والديها تَحمل مَعاني كثيرة منها ما يَخُص الوطن وما يَخص حَياتها الشخصية ، والقارئ لها يلتمس ذاك الإرتباط الوثيق بين الحياتين فأحرفها حارة ومعانيها إحساس ذاك الإنسان الذي يفضل حياة الكرامة على الخضوع فتاة تحب وطنها كما والديها ، وتراب وطنها على ثروة العدو الغاشم . هي رسالة الشابة النموذج التي تحب وطنها ، وواحدة من جيل الثورة ، والظروف القاهرة للشعب ، قلب قوي يحمل الحماس وينبذ المستعمر ، أيدي كتبت كلمات ورمت المستعمر بالجمر الحارق ، وقلب يحمل تراب الوطن للأمان . فهي ذي حسيبة وهذه هي كلماتها التي كتبتها يومًا . لم تصل الرسالة إلى يد والدي حسيبة بن بوعلي ، وصارت في يد أحد جنود الإستعمار الفرنسي بعدما فُتِشَ أحد أصدقاء الثورة والذي كانت مَعه الرسالة ولم يكن يعرف شيئًا عنها سوى أنَّها لوالد حسيبة بن بوعلي و ماهو إلاَّ رسول وعليه إيصَالها له اليوم إن أمكن وأضاف نفس الشخص الذي وُجدَت معه الرسالة أنَّها سُلِّمَت له من طَرف شَخص مَجهول لا يَعرف عنه شيئًا أبدًا سِوى أنَّه أوصَاه بِحمل هذه الرسالة لوالد حسيبة بن بوعلي . أخذت السلطات الإستعمارية الرسالة وقرأتها أكثر من مرة ، لكن الرسالة لا تحمل أسْرَارًا غير أحوال حسيبة وأشواقها لأهلها ، وأملها في العودة إلى ذويها في ظل الإستقلال ، لكن قول حسيبة في الرسالة أنَّها تأمل في الإلتحاق بالثورة بالجبل شدَّ إنتباه المستعمر وأصرَّ على البحث عنها بالعاصمة فالرسالة لم تخرج من العاصمة ولم تأت من بعيد.

شدَّد المستعمر الخِنَاق عَلى الثورة وهي فترة عَرفت بأشدِّ الفترات التي تَشَدَّدَت فِيها القوات الإستعمارية على العاصمة ، وألقي فيها القبض على ياسف سعدي بطل معركة الجزائر، وأصبحت القصبة بركان يغلي كلَّ حين ، فكان جنود الإستعمار يمسكون الناس إعتباطًا وبدون تمييز سواء أكانوا رجالاً وشيوخًا أو حتى أطفالاً ولم تنج فئة من الناس من جرائمهم وقمعهم . في أحد أيام سنة 1957وصلت أسلحة للمنطقة المُستقلة ، وطلب من أحد المجاهدين المقيمين بالقصبة بعث الرسالة للمسؤول هناك يُعلمه بوصول السلاح . بعثت حسيبة بن بوعلي إلى "غندريش" أحد

الفدائيين ليوصل الرسالة إلى المسؤول بالمنطقة لتتمكن من إستئناف المعركة ،ولأنَّه لا يوجد من يحمل هذا الخبر خصوصًا وأنَّ القصبة بركان هذه الأيام ، فرأت حسيبة "غندريش" هو الرجل الذي لا يمكن أن تشكَّ فيه القوات الإستعمارية ، ولم يستطع أحدُ كشف ما يخبؤه هذا الرجل الذي كان عَميلاً لفرنسا وإلاَّ فكيف كان يتنقل بصُورة طبيعية في شوارع القصبة بلا خوف من الإستعمار وهو من كان فدائي مع الجزائريين ؟ غير أن غندريش أصبح جاسوسًا وعميلاً لصالح الجنرال "ماسو" وهو من سَلَّم الرسالة الواردة من حسيبة بن بوعلي ، وأحاطه علمًا بمقر الفدائيين الأربعة الذين رآهم في بيت بأعالي القصبة (من حملوا الأخبار) . هذا الغدر لم تكن لتقرؤه حسيبة ولا من مَعها في "غَندريش" الذي كان مُتعاطِفًا مع الثورة من باب الزيف والخداع فقط . بعدها وضعت السلطات الفرنسية خُطة لنسف البيت بعدما دَرسَت موقعه ، وتوخت الحذر في إسقاط البيوت المُجاورة ، وهذا في سِريَّة تامة فخبر تواجدها بالبيت مع القوات الفرنسية والمسألة مَسألة وقت فقط . وفي 08أكتوبر 1957أحَاطت الجُيوش الفرنسية الحَي من كل مَكان ، ودخلت القوات الفرنسية البيت لكن حسيبة والطفل عمر ومحمود بوحميدي وعلي لا بوانت فرُّوا إلى المخبئ السري ، لم تَجد القوات الفرنسية كيفيَّة للدخول المخبئ والذي كان تحت الأرض وبعد محولات كثيرة إرتفع صوت مُكبر الصَوت عاليا : سَلموا أنفسكم ، وسَيخفف عليكم الحُكم ، وتكرَّر القول عدَّة مرات سَلِّموا أنفسكم ، لا مَفر من المقاومة ؟

إرتفع الصَوت وعلاّ فأدركت حسيبة ومن معها بأهمية رَدِّهم ، فلهذا الصوت القرار الفعَّال على حياتهم ، لكن تسليم أنفسهم لن يكون أرحم من وفاتهم ، فالتعذيب والتنكيل مَذاق مُرٌ ، والوشاية بأخبار المُجاهدين يَعني هلاك كلَّ التنظيم والذي حُضِّر له منذ أشهر ، لم يَعد لصوت المكَبِّر أهمية ، وتضحية واحد أو إثنين قد يُبْكي الأهل والأصدقاء والرفقة أيام ، لكن لن يُخسر القضية الوطنية الكثير لأنَّ هناك من النِسوة والرجال من سَيسُدون الفراغ . هيهات لقد إتخذ أربعتهم ما رأوه صَحيحًا ، فالإستعمار لن يَرحمهم في كلِّ الأحوال ، ولم يعد لهم غير الشهادة مَلاذًا . وبعد زمن قصير أجمعت القوات الإستعمارية على نَسف الجهة التي يختبئ فيها أربعتهم بعد تأكد وجودهم بجهة من بيت القصبة وهو مَخبئ تحت الأرض صعب النفوذ إليه لوعورة المسلك الأرضي . ونَسَفت المقرَّ ، بعدما أحاطت البيت بِهالة من القنابل الناسفة كما رأته في خُطتها فدمَّر البيت الذي تختبئ فيه حسيبة مع الثلاثة الاَخرين فإستشهدوا . بعدما أحاطت القوات الفرنسية الحي من كلِّ مكان ، نَسَفت المَقرَّ.. فإستشهدوا . وفي هذا الإنفجار قَضى الكثير من المَدنيين حَتفهم ، وأنتشِلت الكثير من الجثث المَدنيين الذين كانوا بنفس العِمارة المُستهدفة ، مِنهم أطفال ونساء .وُجدت جثة علي لبوانت ومحمود وحسيبة وبعدها الطفل عُمار.

حُمِلَت في شَاحنة تُحيط بها خَمس شَاحنات لِمظلي الإحْتلال الفرنسي وتوجَه بها إلى حي بلكور الذي كان يومها مُغلق لا أحدًا يمرّ بأمر من السلطات الفرنسيَّة لأنَّها دُفنت في مقبرة "سيدي امحمد"

تحت شجرة مُعيَّنة . وكانت حسيبة قد أوصت أهلها بها قبل وفاتها (دفنها بالمكان) . كان خبر وفاة حسيبة بن بوعلي على المجاهدين في كل مكان ، في القرى البعيدة وفي الجبال وخارج الوطن فاجعة حقيقية ، فحسيبة كان لها دورٌ فعال في نجاح الكثير من العمليات الفدائية ، كما لُقبت في تلك السنوات بأصغر شهيدة سَقطت بساحة القتال وبحي القصبة بالذات . كما كان دورها في صناعة القنابل أكبر دور وأبرز شجاعة لدى الفتاة الحسيبة بالإضافة إلى التمريض ، والوساطة في تمرير الرسائل بين المجاهدين . وقبل كلِّ ذلك كانت حسيبة تُساعد العائلات الفقيرة والتي أصبحت مَنكوبة أو مَهجورة بعد تسلُّط الإستعمار عليها ، وهذا مع والدتها التي كانت مُنْضمَّة إلى جمعية خيرية بالعاصمة .المرأة منار ينير الظلمة ، ويد مساعدة ليد الرجل إذا عَرف كيف يأخذ بيدها. فهي عضو فعَّال في المجتمع عليها أن تتبوأ المكانة المُناسبة . والمرأة صَدر الرحمة ، وروحٌ تحسُّ مَعها بالأمان ، ولن تُقلِّل من أهميتها في المُجتمع لأنَّ حسيبة بن بوعلي من معدن المرأة القويَّة والتي أثبتت أنَّها ستكون في نفس مكانة الرجل ، وحسيبة مثال الشجاعة الحقيقية ويكفي أنَّها استشهدت من أجل إستقلال الجزائر فرحم الله الشهيدة وأسكنها فسيح جنانه ، آمين.

يقول عنها الرئيس عبد العزيز بوتفليقة : "حسيبة دارت حاجة في حياتها" وتقول أختها فَضيلة أنَّ ياسف سَعدي هو مَن وشَى بِمجْموعة لابوانت قائلة بكثير من الحماسة : "نعم هو اللي بيَّعهم أنا قُلتها له أكثر من مَرة ، الكل يُجمع على ذلك لقد قَبَضُوا عَليه في أواخر شهر سِبتمبر والمجموعة أغْتيلَت في بِداية أكتوبر ، وأضَافت حَسِيبة كتبت قبل ذلك رسَالة إلى سَعدي بإسم علي لابوانت المعروف ب"لحبيب" جَاء في معناها : أخِي الكبير سَنُعَاود العَمليات العَسْكرية إنطلاقا من المكان المُتفق عليه ، هو مَن أخبرهم " وبَيْنَه وبين ضميره" و" وبينه وبين الله" وهو الوحِيد الذي لا يَزور قبر أختي ولا يَذكُرها في حِديثه أو تَصريحاته."

ونحن نقول : حسيبة بن بوعلي على قدر عَطائها كانت مكانتها ، وإن كان غيرها يبحث عن مُفَسر للأحلام فهي بحثت عن مُفسر للواقع ، وقد تَعَلمتُ من تاريخها النِضالي رجاء من تمنت أن تعيش كما تريد نفسها لكنَّها عاشت كما يُريد زَمانها ، فهي النفس التي لم تبكي بل أبكت الجزائر لفراقها ، ومَنحت القوة لغيرها لأنَّ البُكاء من ضعف الإنسان ، وأحبَّبتُ كِبريائها ونَبرات كلماتها في الرسَالة وصُمودها أمام القوات الإستعمارية في الاَخير ومُواجهتها حتى ولو لم تعجب أحد . كان سَبب جِهادها جِدِّيا كجِدِّية إختيارها للشَهادة على الإسْتسلام ، فالفراق قاتل لكنَّه أفضل من البقاء الفاشل . وإني أحْسَبُ "حسيبة" طِفلة بَريئَة عَشقت وَطَنها بِجنون ولهَذا نَحتفظ بها في ذاكرتنا فهي المَرأة التي لا تنتهي وإنْ إنتهى الزمن فينا . وحسيبة كانت كثيرًا ما تُردِدُ " مافائدة عَيشنا ونحن مُستعمرين " . يعني أنَّها لم تُزحْ من ذهنها فِكرة الإستقلال ، فكانت مِثل المَاء والنار ، المَاء الذي أروى الأفواه العطشا ، واالنار التي حَرقت الأيدي الطَائشة ، وعلى قدر حبِّ حسيبة لوطنها كانت تضحياتها بنفسها فِداه ، وعُمْرها وردة أهْدتْه للجزائر ، فَقبر حسيبة بن بوعلي كَنْز ظفرت به الأرض .

وما إختارته كان نَصيبها ، لكنَّ الأجمل ما إختاره الله لها ، فالإستقلال مُستقبلٌ طويلٌ آت ، ولكنَّ جميل الأعمال والإصْرار وكثرة التضحيات إقتصَرته ، ووفاتِها في حدِّ ذاتِهَ إنْتِصَار . كما تتخذ جامعة الشلف حاليا إسم الشهيدة "حسيبة بن بوعلي " عنوانًا لها . الوطن الجزائر كان سيناريو الحياة ، وأرضية لمسرحية قام الشعب والإستعمار بتمثيلها وأرواح الشهداء وأفئدتهم بتمويلها ، ...وحَالِيًا العُشب الأخضر ينحني أمام نسمات ريح الوطن الغالي الخفيفة لِيُحيِّي مواقف الشهداء الخالدة ، فرحم الله كلَّ شهيد وأسكنه النعيم الدائم.

المرجع هم الشهود الآتية أسمائهم:

فضيلة بن بوعلي (أخت الشهيدة حسيبة بن بوعلي)

الحاج بن بوعلي (أحد أقارب الشهيدة حسيبة بن بوعلي)

المجاهدة زوليخة بن قدور (درست مع الشهيدة حسيبة بن بوعلي)

السيدة زهرة ظريف بيطاط (مجاهدة وصديقة لحسيبة بن بوعلي)

الزبير بن بوعلي (أحد أقارب الشهيدة حسيبة بن بوعلي)

***كاتبة جزائرية**